غزال المقدشية شاعرة ومصلحة اجتماعية

أ. عبدالقوي العفيري (*)

إذا كان الإنسان كما يقال – ابن بيئته [1] – فإن بيئة ذمار تلقي بظلالها اليوم على العديد من الباحثين ليزيحوا الستار عما حفلت به هذه المدينة العظيمة من شخصيات تاريخية وأدبية ومعالم ، ظلت عالقة في ذاكرة الإنسان اليمني على مر العصور والأيام.

ووقوفنا عند الماضي لمحافظة ذمار – لا يعني الوقوف على الأطلال – كما فعل الشعراء القدامى حين وقفوا وتباكوا كقول امرئ القيس : (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) بل وقوفنا نابع مما يسمى عند النقاد بـ (التراث والمعاصرة) باعتبار أن الماضي المضيء يمكنه أن يساهم في رسم فكرنا وصورتنا المحتملة في المستقبل ، وهذا ما يستوجب التوقف عنده طويلاً . كما أن الوقوف عند تلك المحافظة لا يعني انحيازية البحث ، بل يعد نقطة انطلاق [2] لأبحاث موسعة تشمل ربوع وطننا الحبيب .

ومما يجدر بالإشارة إليه ، أن الأدب بشكل عام يفرض وجوده في أي فعالية أو ندوة ، نظراً للعلاقة المتداخلة بينه وبين العلوم الأخرى ومن هذا التداخل عرفت العبارة القائلة (الشعر ديوان العرب) بما فيه الشعر الشعبي .

لقد عرفت ذمار هذا اللون الشعري منذ القدم حينما جاء ليحمل رسالة بالغة ، وأفكاراً عميقة تدعو إلى احترام ذات الإنسان ، حيث يقف شعر غزال المقدشية في طليعة هذا الشعر.

(*) مدرس بكلية الآداب – جامعة ذمار .

غير أن السؤال الذي قد يتبادر إلى الذهن ، لماذا خلد هذا الصوت الشعري بالذات؟ مقارنة بغيرها من الشعراء ، رغم أن الفترة التي عاشت فيها تلك الشاعرة لا تسمح لها برفع صوتها أو ذكر اسمها باعتبار ذلك عيباً صارخاً لا يتفق مع عادات مجتمعها . زد على ذلك الرؤى النقدية التي سحبت بساط الشعر من اليمن- في الماضي - باعتباره ضجيجاً لا قيمة له ، ورغم ذلك فقد دوّى هذا الصوت الشعري من قرية إسبيل إحدى قرى المقادشة الواقعة في منطقة عنس ، لأنه وقف في مواجهة الإحتراب الأهلي والتمزق العشائري ، فضلاً عن تفوق هذه الشاعرة ذكاءً وحساً على الشاعرات اللاتي سبقنها في العصور الماضية كالشاعرة المرهبية* ، أو ظبية النميرية* التي عاصرتها . فشعرها كما يرى الدكتور عبد العزيز المقالح (نفذ إلى القلوب، وصار كأشعار الحكماء الريفيين كـ علي بن زايد أو حميد بن منصور)(3) وهذا النفاذ له دلالة واضحة ، لأنه يحمل مضامين نفسية وحياتيه تتعلق بذات الإنسان وهمومه وما يعانيه في كل زمان ومكان .

والأهم من ذلك أن هذه الشاعرة ظهرت في عصر لم يكن تعليم المرأة فيه معروفاً – كما أشار الدكتور/ عبدالعزيز المقالح – بل لقد كان تعليم المرأة من الكبائر ، وهو ما يؤكده قول الشاعر حين يسخر من تعليمها :

قالوا قد الغيد بتقرا يا عماد ما قد سمعنا بحرمة قارية (4)

فهو يرى التعليم مجلبةً للعار ، باعتباره يذهب بحياء وعفاف المرأة ، ولاشك أن الشاعرة غزال قد حرمت من التعليم في عصرها كشأن بقية النساء في تلك الفترة .

ولذلك يمكن القول أن بيئة عنس لها أثر في التكوين الشعري لها ، وكأنها أرض خصبة للشعر والشعراء ، فما الأصوات الشعبية التي سمعنا بها كصوت محمد ناصر صبر العنسي والأصوات التي نسمعها اليوم كصوت الهروجي والمقدشي وغيرهم ، إلا صورة صادقة لعطاء شعري تمتد جذوره إلى الشاعرة غزال المقدشية ، وبيئتها .

والحق أن الشاعرة (غزال) تمثل صوتاً شعرياً مميزاً في محافظة ذمار ، فلم يطمسه غبار الزمن ولن يخلو من ذاكرة الناس ، إلى اليوم . وهو ما يؤكده الشاعر

الكبير والناقد عبدالله البردوني بقوله : (إن هذه الشاعرة – ويعني غزال – لو دخلت مدرسة تماثل مدرسة نازك الملائكة وفدوى طوقان لماثلتهما في النبوغ الشعري) . (5)

لقد كان لهذه الشاعرة دور نقدي فاعل داخل حركة المجتمع وذات الإنسان ، وكان لها دور في إيضاح إشكالية العلاقة بين الناس ، وفي علاقة السلطة بالمجتمع ، فغالباً ما كانت هذه العلاقة حادة ومتوترة ، لأنها عاشت في فترة مشبعة بالسم الطبقي حين كان ينظر الإنسان لأخيه الإنسان بالدونية والتعالي وهو ما نلمسه في قولها :

قالوا (..*) وأمها (..*) بنات الخُمس   ما به خمس يا عباد الله ما به سُدس
من قد ترفع لوى رأسه وعد البقش وقال لا باس كم يحبس وما يحتبس
سوا سوا يا عباد الله متساوية   ماحد ولد حر والثاني ولد جارية
عيال تسعة وقالوا بعضنا بيت ناس وبعضنا بيت ثاني عينه ثانية (6).

والمتأمل لهذا المقطع الشعري ، يحس بفكر نفاذ ، ورصانة مدهشة وكأنه أمام شاعر وخطيب وواعظ لما يحمله المقطع من هندسة لفظية ذات تأثير عميق ، حيث يتمثل ذلك في استخدام الرمز العددي (الخمس ، السدس) الدال على السخرية والتحقير فإذا كانت الشاعرة بهذه التقنية العددية تنفي القيم التي تجزئ إنسانية الإنسان ، فإن الدلالة الجزئية للعدد ، ستقود المتلقي حتماً لمعرفة الناتج الصحيح لهذه المسألة الاجتماعية ، إذ يظهر الناتج في آخر المقطع حين تصرح بقولها : (عيال تسعة) وكأننا أمام مسألة رياضية تحمل معطيات الكسور العشرية (خُمس، سُدس) لها قانون رياضي تحل بموجبه ويتمثل ذلك بالعدد الصحيح (تسعة) ، وهي إشارة محملة بمعاني الإنسانية ، استمدت من قوله تعالى : (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة)* وهكذا نرى الفارق الذي وصفه أصحاب النزعات العرقية يتهدم في وجدان الشاعرة ، ويتعزز ذلك حين يشع من المقطع العبارة القائلة (شر البلية ما يضحك) فيمتزج النصح والإرشاد بالسخرية ، سيما في البيت الذي تقوله فيه :

(من قد ترفع لوى رأسه وعد البقش   وقال لا باس كم يحبس وما يحتبس)

فتتجلى في مخيال المتلقي صورة قاتمة لشخصية مدججة بالغرور والكبرياء دلت عليها الأفعال (ترفع ، لوى) في حين يأتي لفظ (البقش) للدلالة على مؤثرات المال

على صاحبه ، حين يخرج من دلالته المألوفة التي تحمل معنى الحياة ورغد العيش إلى دلالة أخرى فيتحول إلى وسيلة من وسائل الإذلال والظلم وهو ما أوحت إليه (كم) المعبرة عن التفكير المفعم بالشرور (كم يحبس) .

فيما تأتي الألفاظ (سوا ، سوا ، متساوية) نابضة بروح العدل والمساواة ، بغية خلق مجتمع نظيف خال من التفرقة الطائفية والعنصرية ، ويتصاعد إحساس الشاعرة جراء هذه القضية عبر النفي المتكرر (ما) المتآزر مع الصورة الضدية التي تكمن في (الحر ، الجارية) بغية كبح مدركات خاطئة تمثلت في استهلالها للمقطع (قالوا (...) وأمها (...) بنات الخمس) ، وهو ما يذكر المتلقي بالمقولة التي تنسب إلى عمر بن الخطاب (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً) .

وما أن ننصرف إلى مقطع آخر ، إلا ونجدها تتناول قضية أخرى وهي قضية الحرب والثأر تلك القضية التي أرقتها ، فهي تنظر للحرب بنظرة تخالف الشعراء الذين عاصروها ، فإذا كانت هناك أصواتُ شعرية تدوي بالأخذ بفكرة الثأر وإشعال الحروب ، فإن صوتها يمثل وسيلة من وسائل إخمادها وكأن صوتها قد التقى بصوت الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى في معلقته حين قال :

(وما الحرب إلا ما علمتهم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم) وهو ما يتضح في قولها :

الدهر غاوي عند إجرة غتـوب	حران ما ينقطع مجرانها
فتحت باب الشقاية والحـروب	لا ما نكمل حبوب مخزانها
وأربعمائة ذي معك خلف الثقوب	ما ينفعك لا عكر دخانها
هو سيلنا لا نزل شل الصلـوب	وكل وادي قلع عضيانها (7)

حيث تتشكل القضية المشار إليها مفرزة الهم الذي يتأجج بأعماق الشاعرة حين ترسم الزمن المنبثق من لفظ (الدهر) في مخيلتها بصورة مريعة دل عليها اللفظ (غاوي) لتحفر في ذاكرة التلقي محنة القضية ومساوئها ، مما يعكس غياب الوعي بين

الأطراف المتحاربة التي دلت عليها الإشارة المكانية (أجرة غتوب) وبهذه الصورة تتراءى للمتلقي صورة لمنطقة تشهد لوناً من الصراع الدموي .

ويفتح ضمير الخطاب المقرون بالفعل (فتحت) والمتخم بالإدانة والتحذير ، صورة ضدية خفية تنقل أفق التلقي إلى زمن غائب يتمثل بزمن السلم ، وزمن حاضر يتمثل بزمن الحرب الذي دل عليه حدث الفعل (الفتح) وكأن العبارة القائلة (الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها) قد تجلت في المقطع . وهو ما يدفع المتلقي بالحدس عن طبيعة ذلك الصراع ونتائجه الحتمية .

ويأتي الفعل المضارع الذي يكمن في القول (لا ما نكمل حبوب مخزانها) للإرهاص بنتائج القضية ، حيث يقف الجانب الاقتصادي المتفاقم التي دلت عليه الألفاظ (حبوب ، مخزانها) . أول المآسي للحروب وكأن الشاعرة قد أفادت من قول علي بن زايد في الحروب حينما قال : (أول الحرب عدامة وأوسطها غرامة وبعدها ندامة) .

وأقول : في السياق ذاته ، أن الشاعرة غزال تتابع كل القضايا من خلال الشعر البالغ التأثير ، فما إن فرغت من حديثها عن الحرب ومساوئه ومؤثراته نجدها في أخر المقطع تلوح بالفخر حين تقول :

(هو سيلنا لا نزل شل الصلوب وكل وادي قلع عضيانها)

وهذا لا يعني أنها تصب الزيت على النار – كما يقال – بل هذا العدول له مبررات نفسية تتعلق بالطرف الآخر الذي لا يعي النصح ، فضلاً عن الصورة الشعرية التي ألقت على المقطع ظلالاً فنية ، وكأن الصورة الشعرية التي عبر عنها الشاعر المخضرم بشار بن برد بقوله : (وجيش كجنح الليل يزحف بالحصى) ماثلة في مخيال التلقي . إذ تتحول القبيلة عبر سياق استعاري إلى سيل عارم ، لتبوح بمعاني القوة والانتقام عبر ألفاظ تضج بالرعب والخوف تكمن في الفعلين (شلّ ، قلع) الرامزة للخراب والدمار وهي إشارة لافتة تفضح الظنون الشعبية التي تجعل من السعي لتجنب الحروب ضعفاً .لأن الشاعرة تدرك أزمات معقدة . زد على ذلك أن هذا التصوير المتقن والتعبير الصاخب يتسم بالقوة والصلابة ، لأنها تواجه مجتمعاً يحتاج إلى النصح والإرشاد من جانب والقوة من جانب آخر .

إن الشاعرة غزال ، في ملامحها تهدم المقولة المتوارثة ، والتي تقلل من شأن المرأة ودورها باعتبارها (ناقصة عقل ودين وميراث) إذ نجد عقلها يتسع باتساع مجتمعها وقضياه ونلاحظ ذلك عبر فضاء قضائي ينم عن بداهاتها ورجاحة عقلها . وهو ما يذكرنا بسيرة الأميرة ذات الهمة [8] حيث تقول (أي غزال) :

غزال قالت تعالوا يا وجيه القبل — أدي لكم حكم لا ينزل ولا ينـدول
الهيج به هيج والنعجة لها رخل — حاكبشتي يوم قلتم يا غزال الغزال [9]

يأتي التصريح باسم الشاعرة لإبانة الدور الذي قامت بـه فـي الـراهن المعـتم (غزال قالت) حيث يمنح هذا الاستهلال ذات الشاعرة ملامح المبادرة الموجهة للطـرف الأخر (وجيه القبل) الدالة على حدة الفكر ونفاذ البصيرة . في حين تفضح هذه المبادرة ملامح ضدية ، تشي بتوتر مغلف بالحيرة والإلتباس والتخبط يتوارى فيها الطرف الآخـر (وجيه القبل) ويتجلى ذلك – كما يسمى في مجال القضاء أو العدل – (الجزم في الحكم) الوارد عبر شذرات إيقاعية تكمن في قولها (الهيج به هيج والنعجة لها رخـل) .وهـي تقنية لها صداها في مخيال التلقي ، تكشف قاعدة قضائية مستمدة من قوله تعالى (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص) [10] وهو ما جعل الدكتور عبدالعزيز المقالح يضعها ضـمن شعراء الأحكام.

إن شعر غزال كان خاصاً بالقضايا العامة ، غير أن ذلك لا يعني خلّوه من قضايا ذاتية ، فما دامت تعيش في عصر يطحن كل شيء بفكيه ، فتنسحق الآمال والبسمات ، والحياة تظل دوامة وفوضى مستمرة ، فلا بد من ظهور ما يسمي عجـز الإرادة فتتجلـى ملامح الضعف حين نقرأ قولها :

يالله يا منصف المظلـوم بك نتـكـل — لانتـه مهل يا إله العرش فانا عجـل
أنصفت لي من على صالح جميزة قتل — جعل له الصوب يمس من رسيسها يـزل
ما عاد احد يبكي الميت وقل له بحـل — وبعض الأصحـاب عين صحبته ماتحـل

فالقارئ لهذا المقطع يحس بأثر الضعف المنساب من صيغة الدعاء (يا الله ،يـا منصف المظلوم) فهي إشارة دالة على الإحتراق النفسي الذي أفرزه الطرف المصرح به

(على صالح جميزة) وتأتي الصورة الضدية الكامنة في صيغة الخطاب الروحي لله عز وجل (لا نته مهل / فانا عجل) للإيحاء بعمق المعاناة . والشاعرة بهذا الأسلوب المشتعل تعكس أصداءً انتقامية عاجلة ، بغية التخفيف من لوعتها وتأزمها . غير أن البيت الثاني ربما يكون أشد تأثيراً من البيت السابق وكأن ما يسمى بـ (المشاركة الوجدانية) قد تجلت في نفسية المتلقي ، عبر مديّات الصوت المرتفع الكامن في قولها (جعل له الصوب) وهي صيغة تصل بالقارئ إلى ذروة الإحتراق الحاد الذي يعكس ملامح التشظي والتهشم ، كما ينساب منها إيقاع حزين يشعل هالة من الحزن والأسى ، إزاء الكيان المسحوق . وكأن نبرة الندب والصراخ تكاد تشع من المقطع .

والملاحظ أن تلك الملامح لم تسلب قوة الشاعرة الإبداعية والجسدية ، ويتجلى ذلك عندما نقف على مقطع شعري أخر ، يسجل بجرأة منقطعة النظير أول تحد من نوعه للمتنفذين وولاة العهود المظلمة – كما عبر الدكتور عبدالعزيز المقالح – حين تهاجم (المثمر) وهو (محصل الزكاة) فتقول :

يا رجال البلد	قد المـّثمر مخالف
جاء يطوف الذرة	أو جاء يطوف المكالف
قال يشتي غزال	و إلا يزيد الغرامة
باضربه في بالقذال	وإلا اربطه بالعمامة
لا رجع يا رجال	ما شي عليا ملامة (11)

فإذا كانت الشجاعة قد تجلّت بكل معانيها ، فإن المقطع لن يخلو من تلميح سياسي في تعريضها (للمثمر) وهي إشارة تحمل في طياتها الظلم القائم على استغلال المنصب بدافع الأهواء الذاتية ، فتتجلى في مخيلة القارئ صورة قاتمة للوضع السياسي آنذاك . بدلالة حرف التحقيق (قد) الذي قام بوظيفة الفضح السياسي والمتأمل للنص يلحظ طبيعة أنثوية متباينة ، فغالباً ما تجعل المرأة من تعدد الخطاب وسيلة للفخر ، غير أن مثل هذه الطبيعة نجدها تتبدد عند الشاعرة ، بفعل التهكم والسخرية ، دلت عليها الأفعال المدججة بالفتك والشراسة (باضربه ، واربطه ..)

وثمة بؤرة فنية تتمحور حول صوت الباء الذي تكرر في الأفعال السابقة – والذي عده علماء اللغة من الأصوات الانفجارية ، وهو ما يتفق مع طبيعة الموقف والحالة النفسية عند الشاعرة إزاء الوقاحة المتدنية التي ألصقتها بشخصية المثمر .

هذا هو الفكر والإتجاه الذي سلكته هذه الشاعرة في ذلك الزمن الشاحب ، فشعرها ظل علامة بارزة ومضيئة في عصر تلاطمه أمواج الحروب والنزعات الطائفية والعرقية والظلم فظل متناقلاً إلى يومنا هذا ، فقد رأيناها وهي تصارع الكثير من القضايا ، فتجلت بملامح المصلح والثائر ، وذلك عبر أسلوب شعري متميز يرتكز إلى موهبة فذة تعكس رؤى الشاعرة إزاء الكون والحياة .

ولا يسعنا في الختام إلا أن نذكر ما قاله الدكتور عبدالعزيز المقالح في شعر(غزال) : (إننا إزاء موهبة شعرية لم تستطع ظروف البيئة الخاصة ولا ظروف اليمن عامة ، ولا جهل الشاعرة بالقراءة والكتابة أن تعوق نموها ، أو تحول بينها وبين أن تفرض نفسها على الأدب والأدباء ، فقد وضعت اسمها بجدارة في قائمة المشاهير من شعراء العامية) . (12)

وبعد – فلن ننسى المقولة التي ترى أن ذمار منبع الشعر والشعراء وهو ما يدفعنا للالتفات إلى الشاعر الشعبي/ محمد الميثالي حين اختزل في قصيدته " من فيض نهديها " القضايا التى عبرت عنها الشاعرة/ غزال المقدشية ، وأضاف لها قضايا عصرية يحس بها إنسان اليوم ، مما يؤكد وظيفة الشعر الحقيقية .

الهوامش :ـ

* هذه المشاركة ألقيت في المؤتمر الذي احتضنته جامعة ذمار ، عام 2005م (ذمار بين الأصالة والمعاصرة) .

(1) رحلة في الشعر اليمني قديمة وحديثه .عبدالله البردوني ، دار الفكر بدمشق ، طـ 5 ، 1995م ، ص 19.

(2) لقاء مع الدكتور مهيوب عميد كلية الآداب جامعة ذمار ، بتاريخ 6/أبريل /2005م .

* سورة النساء ، من الآية (1) .

* المرهبية ، شاعرة يمنية من قبيلة حاشد تعود على العصر الإسلامي ، ينظر رحلة في الشعر اليمني قديمة وحديثة ، ص : 28 .

(3) غزال المقدشية ، د . عبدالعزيز المقالح ، مجلة اليمن الجديد ، مجلة ثقافية شهرية ، تصدر عن وزارة الإعلام والثقافة ، صنعاء ، الجمهورية اليمنية . العدد الأول – السنة السابعة (يناير – فبراير) ، 1978م ص24 .

(4) غزال المقدشية ، مرجع سابق ص25.

(5) رحلة في الشعر اليمني قديمة وحديثة ص333 .

(**) تم حذف الأسماء المصرحة (غزال ، سرعة) بسبب إفادة أحد المقادشة ، مدعياً أن هذا الشعر منتحل والحذف يدفع إلى تحقيق وتقصي شعر غزال المقدشية .

(6)غزال المقدشية ، مرجع سابق ص25.

(7) نفسه ص31.

(8) ملامح الشخصية العربية في سيرة الأميرة ذات الهمة، دراسات في الدلالات الشعرية ، د. هاني العمد ، الجامعة الأردنية ، عمان ، 1988م .

(9) غزال المقدشية مرجع سابق ص 28 .

(10) المائدة ، الآية (44) .

(11) غزال المقدشية ، مرجع سابق ، ص 26 .

(12) نفسه ، ص 31 .